خارطة اكد فوق ارض اللوفر

سرجون في احدى حملاته العسكرية

اختام ووثائق في القاعة الاشورية

الملك كوديا

يوميات المدى في باريس

باريس / يوسف المحمداوي

قلعة تحولت الى متحف

اللوفر قارورة الحضارات الإنسانية باللون والحجر

زرت في العام ٢٠٠٦ متحف دوكالي بساحة سان ماركو في مدينة فينسيا، وكذلك قصر الحكم القديم أو ما يسمى بقصر الدوق، وحظيت أيضاً بزيارة متحف الزجاج الملون في جزيرة مورانوا التابعة لمدينة البندقية، وتلتها زيارة أخرى الى روسيا في عام ٢٠٠٧ نعمت بها بمشاهدة مقتنيات متحف الارميتاج في مدينة سان بطر سبورغ الذي يعد أحد أهم المتاحف العالمية لعمقه التاريخي وثراء وعلو مقتنياته، ولكن ما شدني الى اللوفر عن بقية تلك المتاحف، كونه خصص ثماني صالات عرض في قاعة خاصة لآثار حضارة بلاد ما بين النهرين، هذا من جانب وهو الأهم بالطبع، ومن جانب آخر حظيت بصحبة مترجمين رائعين هما العراقي نبيل العزاوي واللبنانية باسكال عبد الله ليكونا لسان حالي في كل ما أبوحه لكم عن رحلتي مع المتحف.

المدى قبالة مدخل المتحف

دوائر إحصائية لأعداد الحيوانات

دخلناه من تحت الهرم الزجاجي مخترقين قاعة نابليون التي تضم المكتبات، مصرف معلومات، مقهى ومطعماً، أكشاكاً لبيع الكتب والبطاقات البريدية والتحف التذكارية.

استقبلتنا إحدى موظفات المتحف التي ترافقها مرشدتنا للرحلة والتي سارعت بإلقاء تحيتها قائلة: اسمي ويمائيل ماهو متخصصة في عالم الفن واعمل كدليلة ترافق الوفود في اللوفر وبقية المتاحف الفرنسية، وسأقوم اليوم بتقديم عرض لكم عن قسم القطع المعروضة في قاعة بلاد ما بين النهرين.

تقول ماهو: تطورت الثقافات في بلادكم بالألفية الثالثة قبل الميلاد، حيث تواجد المدن التي يترأسها الأمراء والملوك، وغالبا ما كانوا يجمعون ما بين السلطة الحكومية والدينية، لذا نرى دائماً لا يخلو قصر الحكم من المعبد وكانت أنظمة الحكم فيها متوارثة ويرافق ذلك العرف السائد توارث الكتابة أيضاً من أجل توثيق الحوادث والأمور التي تشهدها المدن في فترات حكم آباء وأجداد أولئك الملوك، موضحة: أن من الأمور المثيرة للإعجاب انه في عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد كانت هناك أنظمة للحسابات وتنظيم إدارة الدولة، فضلاً عن وجود دوائر إحصائية ليس للسكان فقط، وإنما حتى للحيوانات الموجودة في كل مدينة.

صداقة عدنان لعدنان خدمتني جداً

وكذلك إحصائية للمنتوج الزراعي الوارد في كل موسم حصاد، هنا ابتعدت عن دليلتنا ودخلت الكرادة مقتربا من وزارة تخطيطنا أبحث عن باب واحد وليس بابين أجد فيه ضالة سؤالي عن عدد سكان العراق من البشر وليس من الحيوانات، ونحن في القرن الحادي والعشرين ليأتيني الجواب من الشباك كما توقعته وليس من الباب، نحن ما زلنا نعتمد على البطاقة التموينية في مسألة التعداد السكاني ومعرفة عدد العراقيين، حينها سألت نفسي وأجبتها على ماذا اعتمد البرلمان العراقي في زيادة عدد نوابه من ٢٧٥ الى ٣٢٥؟ وكان الجواب للسيولة النقدية أحكام وأختام جاهزة لدفع تجربتنا الديمقراطية الجديدة نحو الأمام وتذليل الصعوبات التي تحاول أن تعيقها كافة.

تذكرت قبل مجيئي الى باريس وصية صديقي الناقد والإعلامي عدنان المنشد، إذا ما نويت الذهاب الى متحف اللوفر لابد من أن تلتقي بالشاعر العراقي عدنان محسن المقيم في باريس منذ ثمانينيات القرن الماضي، فهو يعمل ضمن الفريق الإعلامي بالمتحف وسيسعفك بالمعلومات التي تخدمك في كتابة اليوميات، وفعلاً سألت عنه في تلك الزيارة وللأسف لم أجده ولكني اتصلت به فيما بعد وكان أكثر روعة وصدقاً مما وصفه لي صديقه العتيد عدنان، سواء في تحمله لإلحاحي في طلب المعلومات واجتهاده وإهدار وقته لتزويدي بكل ما طلبته منه.

لغة من ألف حرف

وتستطرد الدليلة حديثها وباسكال اللبنانية الأصل والسومرية الملامح والفرنسية الإقامة تقول: يجري التعداد ضمن فترات زمنية محددة، ويؤشر على الأعداد بعلامة مثل الخرم، وكل خرم يمثل عدداً معيناً من الحيوانات، لكن هذا الأمر أصبح أكثر تعقيداً لهم بسبب وجود ألف حرف أبجدي مستخدم في لغتهم آنذاك، لكنهم انتبهوا الى ذلك واستطاعوا تقليصها بالتدريج الى (٣٠٠) حرف، وهذا ما ساهم بشكل كبير في خدمتهم، وكذلك قدم علماء الآثار في فهم ثقافاتهم والإطلاع عليها بصورة دقيقة وواضحة. مشيرة الى وثيقة معلقة على أحد الجدران تقول: هذه أقدم وثيقة تاريخية تعود لتلك الفترة وهي تحاكي قصة حرب دارت بين الملك لكش واحد ملوك مدينة أخرى بسبب محاولة المملكتين السيطرة على نهر يفصل بين حدودهما، وأنت تنظر الى الوثيقة الحجرية ترى عقبان في أعلى الحجر وتشاهد الملك وهو يرتدي لباساً من جلد الماعز وخوذة رأس تحتها شعر الملك الملفوف على شكل ضفائر، فضلاً عن شعر يتدلى على متن الملك وكأنه مربوط مع الشعر الملفوف تحت خوذته، وتراه وهو جالساً بعربته ويلحق به جيشه حاملاً السلاح، وترى بوضوح جثث ضحايا المعركة وهي متناثرة في ساحة المعركة.

وتشير دليلتنا الى أن تلك الكتابات المنقوشة على الحجر تؤرخ لنا حقيقة ما حصل في المعركة وأسباب نشوبها.

خشية على بغداد أن يصيبها ما أصاب أكد

وفي الجهة الثانية من الخريطة الحجرية تشاهد الأسطورة التي يؤمنون بها وهي صورة للإله الذي يعبدونه ويحمي لكش، وهذه ا لقطعة الأثرية يعود تاريخها الى عام ٢٤٠٠ ما قبل الميلاد للملك الأكدي لكش، علماً- والكلام لدليلتنا- أن مدينة أكد القديمة والى يومنا هذا لم يستطع علماء الآثار تحديد موقعها الحقيقي، وأنا انظر الى حجر مشهد حرب لكش تذكرت حروبنا وقلت: أكد حاربت من أجل الماء، فعلى ماذا.. ومن أجل ماذا نحن دخلنا كل تلك الحروب؟ وخشيت على بغداد لحظتها من جهل علماء الآثار لموقعها مثل ما جهلوا موقع أكد إذا ما استمر الوضع فيها على ما هو عليه الآن، ولكن حينها قلت لنفسي: دعينا نحيا حتى نتلذذ بلحظات الندم على ما حدث وسيحدث.

الشاعر العراقي عدنان محسن والإعلامي في المتحف يذكر ان أصل كلمة اللوفر غير معروف، ولكن ثمة فرضيات تعود بالكلمة الى أصلها اللاتيني (لويرا) وتطورت هذه الكلمة الى ما نعرفه الآن، وهناك من يقول أن (لويرا) كلمة من أصل ساكسوني تعني القلعة، وهي التي أوعز ببنائها الملك فيليب اوغست في المكان الحالي للمتحف قبل توجهه مع ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد لقيادة الحملات الصليبية الأولى تحصيناً لمدينة باريس من أخطار الجيوش النورماندية، وكل ذلك في الفترة الزمنية ما بين ١١٨٠ و١٢٠٢ ميلادية وهو التاريخ الرسمي لبناء القلعة التي سرعان ما تحولت الى قصر ملكي بعهد الملك فرانسوا الأول الذي قام بهدمها ليشيد بدلاً منها قصراً ملكياً يعتمد في بنائه على أسلوب الرينيساس الإيطالي، حيث كلف المهندس الإيطالي سيريليو بالعمل، ثم استبدله بالمهندس ليسكو لإتمام العمل.

البداية (١٢) لوحة فقط

وبعد وفاته عام ١٥٤٧م كان القصر يضم عدداً قليلاً من التحف فيه، وعلى الرغم من قلتها لكنها كانت تضم (١٢) لوحة من أجمل لوحات المتحف الحالية، منها (٤) لوحات لـ(رافائيل) ومثلها لـ(ليوناردوا دافنشي).

وفي عهد الملك لويس الرابع عشر اقتصر العمل على صيانة وتزيين القصر من الداخل وبلغ عدد اللوحات فيه بعد اعتلاء لويس العرش الى (٢٠٠) لوحة.

من مهد للحضارة الى مهد للخسارة

نعم.. قلعة تتحول الى قصر ومن ثم الى متحف، ولنا متحف يحتوي على أكثر من (٢٠٠) ألف قطعة أثرية موزعة ما بين قاعات العرض والخزانات يعود تاريخها الى أكثر من (٥٠٠) ألف سنة قبل الميلاد، أي من عصور إنسان نياندرتال حتى آخر العصور الإسلامية، قطع ووثائق وأختام لا تقدر بثمن، نعم.. أصبح ذلك المتحف ساحة نهب وسلب لتتحول بقدرة قادر فاعل بالطبع من مهد للحضارة الى مهد للخسارة، لأصرخ باتجاه السماء صامتا.. يا أعدل الله إلا في معاملتي، لكن للجحود حدود أخرست عجز البيت الشعري.

تذكر دليلتنا أن ملوك أكد حاولوا ان يوحدوا جميع المدن الجنوبية بمملكة واحدة، وكانوا يمتلكون السطوة والنفوذ لتحقيق ذلك، وهذا ما نجده من خلال حروبهم الكثيرة التي نقشوها على الحجر الأسود الذي استخدموه للتوثيق لكونه صلبا جداً وأقوى من الكلس، حيث كانت لهم دراية ومعرفة بأن هذا الحجر يحتوي على مادة اوكسيد معدنية تقاوم الدهور.

وهذا هو الملك نرام سين الذي يعد من اهم ملوك أكد وتشاهدونه –والكلام للدليلة– وهو يقود إحدى حملاته العسكرية للسيطرة على أراض جديدة، ومعظم تلك النقوش التي ترونها هي لتبجيله وتعظيمه، وفي هذه القطعة الأثرية نراه وهو يحارب سكنة الجبال، وما يبين ذلك هو زحف جيشه باتجاه مرتفع ونرى الملك الأكدي بعضلاته المكتنزة التي تدل على قوته، وكذلك يظهره النقش وهو أكبر قامة ومهابة من الجميع ولديه قرون ترتفع على خوذته، والقرون على الخوذة في تلك الفترة كانت ترمز للإلهة الشمس، أما في هذه الفترة فالقرون ترمز الى..... (أدري وتدرون.. واصمت وتصمتون) مع اعتذاري الشديد الى جدنا الملك من حفيد وقح.

دمار مدينة أكد

لكنه حاذق في الاصغاء للنحيلة مثلي دليلتنا الرائعة وهي تقول: هذه القطع كانت موجودة في بلادكم ولكنها أخذت كغنائم بعد أن قام احد ملوك فارس بغزو مدينة أكد ولاعتزازه بالانتصار أضاف على الحجر الأساسي نحوتاً تمثل نصره وضحاياه، ولهذا السبب لم يتمكن علماء الآثار من تحديد موقع مدينة أكد بعد أن دمرت بالكامل ونقلت آثارها الى منطقة سوس الإيرانية.

اعترضتني في تلك اللحظة مقولة لأفلاطون وشعرت بأني أوجهها لبعض ساستنا، (من يأبى اليوم قبول النصيحة التي لا تكلفه شيئاً، سوف يضطر في الغد الى شراء الأسف بأغلى سعر)، وقد لا يجده باعتقادي.

سألت دليلتنا كيف وصلت هذه القطعة الى هنا؟

– العلماء الذين قاموا بالتنقيب في تلك المنطقة هم فرنسيون، وفي ذلك الوقت لم تكن هناك حماية قانونية في مسألة نقل تلك القطع الأثرية، وذلك في مطلع القرن العشرين، لذا نجد الكثير من الآثار الموجودة في تلك المنطقة داخل المتحف.

(١٦) ألف قطعة أثرية مسروقة

ما يحرك الوجع هناك ويحيلك مكرها الى مستنقع الألم أن القاعة المزينة والمضيئة بآثارنا مكتظة بمئات الزوار الأجانب القادمين من أرجاء العالم للإطلاع على آثارنا، وما يوجعني حقاً هو عدم قدرتي حياءً على أن أقول لهم.. (أنا عراقي)، نعم أخجل لأني أدرك تماماً أنهم ساخطون مثلي، بل قد يكونون أكثر مني على نهب (١٦) ألف قطعة أثرية ونفائس ووثائق لا تقدر بثمن، ماذا أقول لهم لو سألوني عن الإناء النذري الذي يشكل الفلسفة السومرية في الحياة والموت؟ عن المجوهرات الذهبية في النمرود؟ عن رأس سرجون الأكدي والثيران المجنحة؟.. ما حل بآثار مملكة أشنونا في موقع تل اسمر في ديالى والتي يعود تاريخها الى بداية الألف الخامس قبل الميلاد.. ماذا أقول لهم؟ نعم خجل الى حد الذل وأنا أرى تلك الشموس الربانية تنظر بعيون المها والمروج الى آثاري، لذا أراني اختفيت وراء ستائر شعرية من ثريات رماد الشاعر أحمد عبد السادة كتب عليها: " وجوه الناس آلات تصوير.. تصوب عدساتها نحوي!.. الجحيم هو أن تعترف الوجوه بما أحاول إنكاره.. الجحيم هو ما أراه.. عندما يتأطر جسدي بحدود البطاقة الشخصية...".

نعم يا صديقي أحمد الجحيم هو ما أراه.. ومع ذلك لاحت قيلولة ابتسامة بين الضلوع المستحقات التقاعد، وأنا أتذكر عشقك للجمال والمرأة الذي دفعك يوماً ما للتصريح قائلاً: "أنا عبد السيدات وليس السادة".

من متحف الجمهورية الى متحف نابليون

يقول الشاعر والإعلامي عدنان محسن الذي استوطن الغربة منذ أكثر من عقدين: ان القصر أهمل حتى قيام الثورة التي رأت من الضروري ان يكون هناك متحف يشاهد من خلاله الجمهور الكنوز الفنية، وبالفعل تم افتتاحه تحت اسم (متحف الجمهورية) او المتحف الفرنسي في ١٧٩٣/١١/١٨، وبعد مضي ثلاث سنوات تم إغلاقه لأغراض الصيانة والترميم ليعاد فتحه عام ١٧٩٩ تحت اسم (المتحف المركزي للفنون) واستبدل اسمه مرة أخرى ليصبح (متحف نابليون) وقد ساهم نابليون الأول بحملات انتصاراته في إثراء المتحف باللوحات واغنائه بالتحف الأثرية، فضلاً عن قيامه بصيانة اعمدته ونحت واجهته المطلة على النهر، لكن خسارته في معركة واترلو ساهمت بنهب الكثير من كنوز المتحف على أيدي المتحالفين، ومع ذلك حافظ الفرنسيون على معظم تلك الكنوز، من خلال إيداعها قبل وصول الأعداء اليها في الكنائس ومتاحف المدن في عموم فرنسا، ولكن نتيجة تلك المعركة ألقت بظلالها على المتحف وأوقفت مشروع إقامته مؤقتاً، وبعد ان تسلم شارل العاشر الحكم تم تجديد الطوابق الأولى في الأجنحة الأربعة، وتم وضع التحف الفرعونية واليونانية فيها، فيما قام لويس فيليب بافتتاح القاعة الآشورية ليتم بعدها مجدداً طرح مشروع ربط قصر اللوفر بقصر التويلري، ولكن الفكرة ألغيت بسبب رفض النواب المشروع.

الحق كالزيت يطفو دائماً

ويضيف عدنان أن حكومة ثورة ١٨٤٨ بعد أربعة أيام من استلامها للسلطة اتخذت قراراً بإنهاء العمل فيه وسمته (قصر الشعب)، مبيناً: أن مشروع ربط القصرين تكرر طرحه وتحقيقه أبان حكم نابليون الثالث واستغرق العمل فيه لمدة خمس سنوات، ولكن بعد ثلاثة عشر عاماً تم حرق قصر التويلري من قبل حكومة الكومون ليذهب رماداً معه أكثر من ٧٠ ألف كتاب ومخطوطة.. وهنا أتوقف عند ملاحظة أجدها جديرة بالتوقف والتساؤل في جميع الأزمنة والتواريخ التي مر بها القصر الذي كان قلعة، ثم تحول الى متحف يعرف الفرنسيون تماماً من بنى وعمر؟ ومن أحرق ودمر؟ بالمسميات والتواريخ، ولكن نحن.. حرائق مؤسساتنا ودوائرنا نعرف تواريخها أيضاً ونعرف الجاني، وبالطبع هو تماس كهربائي! على الرغم من تقدم تلك الخدمة الى ما وراء الفانوس، عمليات السلب والنهب والسطو المسلح نعرف أبطالها وهم يقولون مجهولون لاذوا بالفرار.. من هم؟ أولئك الذين يتغافلون ويتجاهلون تماماً المثل الذي يقول: "الحق كالزيت يطفو دائماً".

كوديا يصلي مكتوف الأيدي

صحوت من هذياني على صوت ويمائيل وضوء عدسة كاميرتي التي أرهقت بها صديقي العزيز نبيل ليقولا لي بالصوت والصورة ونحن نقف بالقرب من منحوتة للملك كوديا، كان الملوك في ذلك الوقت يتبارون في إظهار سطوتهم وتقواهم في الوقت ذاته ، لذا تجد أغلب نقوشاتهم تظهرهم أما مؤسسين او مرممين لمعبد او بحالة نحتية تجدهم فيها بحالة خشوع وعبادة للإله، وهذا ما نراه جلياً في التمثال الصغير للملك كوديا، حيث نراه وهو يصلي مكتوف الأيدي.

"علماً أن الملك ينتمي للجنوب ذي الأغلبية الشيعية وليس من المناطق ذات الأغلبية السنية، وهذا برهان جلي ان الطائفية مستوردة حديثاً للبلاد! ولا فرق أن أسبلت يديك او ضممتهما إنما المهم هو العبادة الخالصة لله بسرائر نقية ونيات صادقة".. هذا الكلام لي وليس للدليلة التي لا يحتمل عودها هبة ريح، فكيف الحال برصاصة من كاتم لا يصيح.

أما انا بكل مجون المدمنين على البكاء انحرفت متجهاً صوب عاصمتي.. مصيبتي.. عشيقتي بأبيات الراحل محمود درويش من ديوانه لا تعتذر عما فعلت:

الغائبان أنا وأنت
أنا وأنت الغائبان
لم يبق في اللغة الحديثة
هامش للاحتفاء بما نحب
فكل ما سيكون.. كان
سقط الحصان مضرجاً بقصيدتي
وأنا سقطت مضرجاً بدم الحصان

ورغم السقوط سنجدد وقوفنا في اللوفر ثانية

نقوش حجرية لمقاتلين في ساحة المعركة